الهدير

قصة بقلم
مهدي عيسى الصقر

من بساتين النخيل وراء بناية المحطة ، خرج ـ مثل كل يوم ـ كلب أشهب هرم وجاء يخب في خط مستقيم ، رأسه الكبير يتدلى أمامه يتشمم الارض الدافئة ، وذيله يتأرجح بين رجليه ، وحين وصل على بعد بضع اقدام من سكة القطار ، توقف فجأة وكأنه ارتطم بجدار غير مرئي . رفع رأسه وبقي ينتظر . في اللحظة نفسها تقريبا ـ ومثل كل يوم أيضا ـ خرج من داخل بناية الحطة رجل كهل يرتدي دشداشة غبراء ويلف رأسه بيشماغ قديم ويستند على عصا غليظة . أدار رأسه كعادته كل ضحى وحدق في مكان الساعة على الجدار فوق مدخل البناية . رأى ـ رغم ضعف بصره ـ الرقعة المستديرة البيضاء ، الرموز السوداء وعقارب الساعة المعدنية التي كانت تشير الى العاشرة . شاهد الكلب يقترب من السكة ثم يتوقف في مكانه المعتاد بانتظار وصول القطار لعل أحد ركابه يرمي اليه بشيء يؤكل من احدى نوافذه العديدة وهي تخطف أمامه الواحدة بعد الاخرى ثم تسكن دون حراك ، تلوح عبر زجاجها السميك ، في ظلمة العربات ، وجوه ضجرة متعبة علاها الغبار وهدها السفر الطويل .

اقترب الكهل بخطى بطيئة ووقف الى جانب الكلب وراح الاثنان ينتظران وعيونهما تجاه الشرق .

* * *

القضبان الحديدية لسكة القطار ـ والتي انطفأ بريقها ـ تكاد تختفي كلها تحت بساط كثيف من العشب الاخضر والعاقول النابت في التراب وبين الحصى والصخور والعوارض الخشبية السميكة ، والتي تغور معظم أجزائها في داخل الارض . الاجزاء الصغيرة المكشوفة من الحديد والتي تلوح داكنة ، بين خضرة الحشائش والاشواك ، في اماكن متباعدة ، تدل بوضوح على مسرى الخطين . السكة تمتد بين صفين طويلين من بساتين النخيل تنتصب على جانبيها الجذوع الباسقة في خطوط متوازية تمتد طولا وعرضا الى مسافات بعيدة . الظلال الساقطة من السعف النافر من ذرى النخل تتكسر على الجذوع البنية الفاقعة اللون في خطوط سوداء مائلة وتنزلق الى الارض المعشبة حيث تسقط ايضا ظلال الجذوع الطويلة وتتداخل لتقسم الارض الى مربعات ومثلثات عشبية تفرشها الشمس . السماء باهتة الزرقة وصافية ، لا اثر فيها لسحابة او دخان ، والمدينة نائية .. نائية جدا .

* * *

الكهل والكلب ينتظران .

الدقائق تمر ثقيلة بطيئة على الاثنين . ويضجر الكلب بعد فترة . يتململ ويمد انفه الى فتحة الجيب الجانبي في دشداشة الرجل . فتحة الجيب تهبط عاموديا بطول قدم تقريبا على امتداد ساق الكهل مثل جرح طويل تخثر على اطرافه الدم . يبعد الكهل رأس الكلب بقوة عن فتحة الجيب وينهره بشدة . انتظر ! لكن الكلب لا ينتظر . يترك رأسه يتدلى الى الارض ، يدير ظهره ويتحرك مبتعدا صوب البساتين سالكا نفس الطريق الذي جاء منه قبل فترة . يصيح الرجل وراءه في غضب . عواد ! يتوقف الكلب .. يستدير ويعود الى مكانه . يرفع رأسه الى الرجل وينتظر في صبر . ومثل كل يوم يدس الكهل يده في فتحة الجيب .. يخرج عظما علقت باطرافه قطع صغيرة داكنة من اللحم ويرميه الى الارض فينقض عليه الكلب العجوز في نهم . يسمع الرجل حمحمة الكلب المنشغل بالعظمة . يرتخي وجهه المجعد ، لكن نظراته المنشغلة تظل ترنو الى بدايات الدرب .. في المدى البعيد .

* * *

الكلب يتمدد الآن بارتياح على الارض الدافئة ، في الشمس ، عند اقدام الكهل ، مغمضا عينيه بعد ان اتى على قطعة العظم كلها . ظلال جذوع النخيل في البساتين

المحيطة تتقاصر مع اقتراب الظهيرة . الرجل لا يزال في مكانه ينظر وعيناه الصغيرتان الذيبان تحدقان في المنعطف البعيد حيث تضيع معالم الدرب وبتشابك السعف وتتداخل الجذوع كما في غابة نخل كبيرة واحدة . من هناك كانت تخرج الماكنة كل يوم مندفعة مثل نقطة صغيرة سوداء تكبر شيئا فشيئا وهي تقترب تتبعها سلسلة من العربات في خط طويل يتلوى ثم لا يلبث ان يستقيم لتختفي العربات كلها بعد ذلك وراء الماكنة الضخمة المقبلة ..

* * *

يمر قروي .. يرى الكهل والكلب في مكانهما المعتاد قرب سكة القطار . يقترب منهما يصيح بصوت مرتفع لكي يسمعه الرجل . سلمان .. قطارك تأخر ! يلتفت اليه الكهل في غضب . تتهزأ حضرتك !؟ لا ابدا .. لكن اقول قطارك تأخر وان يصل ! يرد الكهل مطمئنا وهو يشيح بوجهه .. يجي .. يجي .. لا بد يجي . يبتسم الرجل في اشفاق ويهز رأسه وهو يمضي .

* * *

بناية المحطة الصغيرة مهجورة وخاوية . جدرانها متداعية ، بابها مخلوع ، ونوافذها الخالية من الزجاج تعصف عبرها الريح . وفوق المدخل ، على الجدار الاسمنتي المغطى بطبقة كثيفة من الغبار ، حيث كانت تستقر ساعة المحطة ـ والتي ازيلت منذ زمن بعيد ـ لم يبق غير خط دائري كبير من الصدأ الذي خلفه على الجدار اطارها المعدني المستدير ، وعدد من الثقوب السوداء الصغيرة حيث كانت تمر اسلاكها الكهربائية .

* * *

يفتح الكلب عينيه .. ينهض ويتمطى ، ثم ـ فجأة ـ يرفع رأسه ، يوتر اذنيه ، ويحدق في المنعطف البعيد متحفزا . ينتفض الكهل في مكانه . ها عواد .. سمعته؟؟ يظل الكلب جامدا في مكانه يتصيد الاصوات البعيدة ويحاول ان يتعرف عليها ويميز مصدرها . الكهل يترقب . يضنيه الانتظار . يرمي عصاه جانبا ، ينطرح على الارض ويتشبث بقضبان السكة ، ويلصق اذنه بالحديد البارد ، فينصهر العشب تحت خده المجمد وراحة يده المتخشبة .

* * *

يلمح الكلب طلائع قطيع من الاغنام ينتشر بين جذوع النخيل في البساتين البعيدة وفوق سكة القطار ، ويرعى العشب الاخضر ويتقدم على مهل ، ينثر البعرور بين القضبان واقدامه الصغيرة الكثيرة ترتطم بالحديد وهو ينتقل من مكان الى آخر .

* * *

يشعر الكهل بحديد السكة البارد ينبض تحت لحم خده وراحة يده ، ويسمع هديرا مكتوما ينبعث من باطن الارض تحت رأسه ، وتضيء وجهه الذاوي ابتسامة فرح .. وتملأ صدره ضحكة تنطلق مثيرة معها نوبة من السعال الجاف المتواصل . ومن وراء اجفانه المغلقة ـ وهو يختض ويشهق بحثا عن الهواء ـ يرى القطار مقبلا من بعيد يهدر ويتلوى مثل ثعبان اسود ضخم طويل ، وصفيره الملحاح يمزق السكون ويملأ بساتين النخيل على الجانبين . ويعلو هدير العجلات وصرير الحديد على الحديد ، واللهاث الوحشي للماكنة الضخمة الداكنة المندفعة بجنون تكتسح الفراغ في عناد ، ويلفحه الهواء الحار ويحاول النهوض والخلاص ، لكن جسده الثقيل يظل ملتصقا بالارض ، وتخور قواه وتنضب شيئا فشيئا كمن ينزف دمه دون انقطاع .. ويطبق عليه القطار اخيرا ، ويشعر بعجلاته العديدة المتلاحقة الهادرة تدوس فوق خده الواحدة بعد الاخرى في تتابع ابدي ..

* * *

عندما تأتي امرأته ظهرا لتعود به الى البيت ، تشاهد قطيعا من الاغنام ينتشر فوق السكة امام بناية المحطة .. بعض الخراف ترعى العشب وبعضها تنام في الشمس في اوضاع مختلفة . تلمح جانبا من جسد زوجها المنطرح على الارض ، فتشق طريقها اليه بين اجساد الخراف النائمة . يقع نظرها على الكلب الهرم وهو يتمدد على الارض مغمض العينين ، ثم ينكشف لها وجه زوجها الملتصق بحديد السكة وكأنه يستمع لصوت قادم من باطن الارض وكفه الداكنة الجافة المعروقة الراقدة الى جانبه ـ بين العشب الاخضر ـ تبدو مثل جذر شجرة كبيرة هرمة قتلها العطش .

بغداد

صدر حديثا

البطل الثوري
في الرواية العربية الحديثة

للناقد المصري : أحمد محمد عطية

منشورات وزارة الثقافة السورية

سعر النسخة ٦٠٠ ق.س.ل